تصور منظومة التفاعلية الرباعية في قراءة النظام المعرفي القرآني دراسة في منطق الفلسفة العلمية

وائل أحمد خليل *

التصور العام :

إنّ تعدُّد واختلاف الرؤى حول ماهية وكيفيات بناء النظام المعرفي القرآني يمكن أن يصبح أمراً إيجابياً إذا ما نظرنا إلى هذا النظام المعرفي القرآني باعتباره النظام المعرفي الشمولي الذي يستوعب شتى زوايا الانتباه ومنظورات الوعي لدى الإنسان على أحوال الكائنات والوقائع في العالم، ومن ثم العلاقات والروابط السببية والخارجية بين هذه الكائنات كامتداد لماهياتها، الأمر الذي يضمن – إلى حد كبير – نجاح أي محاولة لإعادة الصياغة أو البناء العقلي لأي فئة أو قطاع في المجتمعات . لذلك لا نقول بأن القرآن الكريم يمثل نموذجاً معرفياً يقف جنباً إلى جنب مع النماذج المعرفية التي تحاول العقول البشرية وضعها وصياغتها ، فنستعيض عن مقولة " النموذج القرآني بمقولة "النظام" ، وأن ما هنالك هو مجموعة تصورات حول هذا النظام تنشأ من عدة زوايا الانتباه على أوجه هذا النظام الموحد .

هذا البحث إذن ،هو محاولة للتعرف على ممكنات الكشف عن النظام المعرفي القرآني العام بالاستفادة من تأويل أوجه الصواب والحق والفائدة في جانب من مقررات الفكر الفلسفي العلمي العالمي ، ومن هذا الجانب التيار التحليلي المستفاد من ملاحظات " لدفيش فيتجنشتاين " Ludwig Wittgenstein "المتأخرة وأصولها ونتائجها باعتبارها منهجاً للتحليل والفهم والتأثير وليس إيديولوجياً واعتبارها بمثابة السلم أو الدرج للصعود وتجاوز الهوة التاريخية الحضارية التي تفصل بين الوعي الشرقي والوعي الغربي ، وذلك بغرض إعادة رسم العلاقة الجدلية بين المستوى الإنساني " العلوم الإنسانية Human Sciences" والمستوي الطبيعي " العلوم الطبيعية "Natural Sciences " ، والمستوي التجريدي " العلوم الصورية – " Formal Sciences " - اللغة والمنطق والرياضيات " والمستوي الإلهي " المجال العلي التحكُّمى " ويتمثل ذلك في تفاعلية ذات أبعاد رباعية متصلة تماماً ، فهي بمثابة أعضاء الجسم الواحد :

* محاضر بجامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا .

الوحي الإلهي

↓

الوعي الإنساني

↓

الأنساق الصورية

↓

الكون الطبيعي

إن الفرض القائم هنا أنّ هذه المنظومة المتصلة تماماً يمكن أن تمثل تصوراً يؤكد أنّ هنالك قراءة معرفية واحدة فقط هي بمثابة مجَّسم رباعي إذا فقد أحد أضلاعه فقد بذلك وحدته الماهوية الكلية التي تجعله مربعاً في الأصل ؛ لذلك فهي قراءة واحدة كلية ، ومعنى كونها "كلية " هو أنها تتألف من عدد من الفئات بنحو جامع مانع تحدد في مجملها أصل هذا الكل وماهيته ، بحيث إذا أسقطت فئة من فئاته المكونة أصبح الكل عقداً منفرطاً وجزئيات متفرقة فتضيع بذلك الوحدة العضوية التي من شأنها أن تحقق الإدراك المكتمل بهذه الفئات من خلال وحدتها الكلية تلك . ويمكن القول بناءاً على هذا إن هذه الوحدة الكلية الرباعية الزوايا وقراءتها الواحدة إنما هي مستمدة من ذات الوحدة العضوية البنائية للقرآن الكريم وذلك بنحو متسق تماماً ، وقد يتضح إنّ هذه القراءة الواحدة هي – إلي حدٍ ما – قد تخالف ما درجت عليه التصورات التقليدية لإسلام المعرفة من "الجمع بين القراءتين " التي يمكن أن توحي بدلالة مفادها أنّ هنالك كتلتين منفصلتين ومتمايزتين تماماً عن بعضهما البعض ولكل منهما خصائصه الذاتية والمراد هو إجراء التوفيق بينهما. ولكن ما قد يبدو من محاولة الجمع هذه بين القراءتين "الكون والوحي"أنها تعود بنا إلى تلك المرحلة التي تم تجاوزها منذ أخريات القرن التاسع عشر وهي مرحلة مقررات الفكر التجريبي في الفصل الماهوي التام بين الواقع الموضوعي الكوني والبنية العقلية المتمثلة في " الوعي"؛ و الفكر الفلسفي – العلمي في الراهن المعاصر قد تجاوز بالضرورة هذا الانفصال التجريبي الحاد إلى مفهوم التداخل الدائري التوحيدي بين الذات والموضوع أو الوعي والوجود . كما أنّ فكرة الجمع بين القراءتين هذه قد يكون من شأنها المساعدة على البقاء في مرحلة التوفيق والتلفيق بصدد الإعجاز العلمي للقرآن الكريم .

(أ) أزمة العلوم الأوربية وأصل منظومة التفاعلية الثلاثية :

تمثلت أزمة الوعي الأوروبي- والتي تجلت على نحو بارز في العلوم الإنسانية – في حمل سمة التحيز المنهجي"One-s idedness " في التفكير منذ بداية التاريخ الفلسفي ،فكان إما التحيز نحو المثالية أو العقلانية "Idealism Rationalism" برهن الموضوع "Object " إلى العقل "Reason " وتأسيس الخبرة على النحو الاستنباطي

"Deductive " مما من شأنه أن يؤدي إلى الإغراق في التجريد ومن ثم فقدان صفة الموضوعية "Objective" اللازمة للممارسة العلمية ، وإما التحيز نحو التجريبية أو المادية " Empiricism ,Materialism" برهن الذات "Ego " بالكلية نحو الموضوع وقصر الإدراك على الطريقة الاستقرائية "Inductive" مما يؤدي إلى حدوث اغتراب الإنسان عن ذاته بإلغاء الخاصية الانفعالية والعناصر السيكولوجية المكملة للتكوين المعرفي .

لذا كان من قبيل الضرورة التاريخية أن يأتي ادموند هوسرل " E.Husserl" الفيلسوف والمنطقي الألماني بصياغة فكرة الظاهريات " phenomenology" كعلم شعوري خالص لا تجريبي ولا صوري من أجل تحقيق وحدة الوعي الأوربي وإعادة تأسيس نظرية العلم إذ استطاعت الظاهريات شق طريق ثالث بين المنطق الصوري الذي يمثل القوالب الكلية العامة " المذهب المثالي " وعلم النفس التجريبي الذي لا يعتقد في معارف كلية قبلية " Apriori" ، وكان هذا الطريق الثالث هو طريق الشعور وذلك من خلال منهج مؤلف من خطوات ثلاث تبدأ " بتعليق الحكم " لإبعاد الواقع المادي ، وهو يعني وضع العلم بين قوسين وإخراجه عن دائرة الاهتمام وعدم الحديث عن الظاهرة المادية بإزاحتها جانباً وعدم إصدار حكم عليها وذلك بهدف القضاء على الاتجاه الطبيعي بكل مظاهره المادية والنفسية والوضعية والأنثروبولوجية والبيولوجية ، فهي بهذا تعد ظاهرة متعالية "Transcendental" أي خارج حيز الإدراك – في نظر " هوسرل "- ولا تصبح ذات دلالة إلا بعد حلولها في الشعور كتجربة حية "Transcendence" وعدم رؤية الظواهر في المكان بل رؤيتها في الزمان الذي هو صفة الشعور الداخلي . وثاني خطوات هذا المنهج الظاهرياتي هي " البناء أو التكوين" وهي المرحلة التي يظهر فيها الشعور كقصد متبادل مكون من قالب "Noes "يمثل الجانب النظري أو العقل في الأنا الخالصة ، ومضمون "Noeme" يمثل الموضوع . هذا ويتميز الشعور عند " هوسرل "بأنه "يتجه نحو" أو " يمتد نحو" ، فكل وعي هو وعي بشيء ما . ويمكن القول بأن تقرير " هوسرل " أن الشعور هو ذات و موضوع معاً. وهو خطوة موفقة بصدد حل المسألة الأساسية في الفلسفة ، أما الخطوة الأخيرة فهي " منهج الإيضاح " ويمثل الصلة بين الفينومينولوجيا والأنطولوجيا ويتعلق بفحص الوسائط الاتصالية الناقلة لحالة الوعي المؤلف من قالب ومضمون الشعور وإخراجها إلى حيز الرؤية عن طريق التوضيح والكشف والشرح [1].

إنّ هذه المحاولة التي أقامها " أ. هوسرل" بكسر الجدار القائم بين التيار المثالي العقلاني والتيار التجريبي المادي كانت هي فاتحة الطريق إلي محاولات منهجية أكثر تطوراً على مستويات مختلفة لبناء الرؤية الكونية الشاملة " World View" من خلال عنصر التحليل ، وكان ذلك جراء إسقاط عملية التركيب باعتباره بناء يخضع لا محالة للتصنيفات المذهبية التي لا تحقق الواحدة منها بمعزل عن الأخرى رؤية كونية شاملة تعتمد على استقراء محايد لمجالات الحقائق العلمية ومستوياتها ، الأمر الذي انتهي بظهور التيار الفلسفي الذي أسسه "فيتجنشتاين "في " كيمبريدج" "Cambridge" وامتد

[1]. حسن حنفي ، مقدمة في علم الاستغراب ، الطبعة الأولى المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، لبنان ، 1992.

إلي " أكسفورد " "Oxford" وهو التيار الهادف في جوهره إلى إحداث الفهم والتأثير بإزالة الحاجز بين الوعي "Consciousness" والموضوع "Object" ونفاذ العقل "Mind" إلى إدراك العقل الآخر " OtherMind " الذي يتمثل في الكتل والكيانات الاجتماعية المختلفة وذلك باعتبار أن محور نظرية "فيتجنشتاين " في المرحلة المبكرة من فكره – و المسماة بالنظرية التصورية للغة"The Picture Theory of Language" كان هو الاهتمام بالشروط التي تجعل اللغة الوسيط الاتصالي الناقل لحالة الوعي مكتملة منطقياً، أي أنها لا بد أن تستوفي كافة شروط الضبط المنطقي للمعاني والدلالات بما لا يدع أدنى مجال للبس والخطأ وسوء الفهم بفعل غموض الاستخدام اللغوي ، على أن يحقق هذا الضبط دقة انتقال العلاقة الدلالية المنطقية المباشرة بين الموضوع ومسماه اللغوي وذلك بضبط البنية المنطقية للسياقات التعبيرية اللغوية المختلفة وفق المستوي الرمزي . فكرة الاكتمال المنطقي هذه تنطلق من افتراض أن مجمل وظيفة اللغة هي أن تكون ذات معنى ولن تحقق اللغة هذه الوظيفة إلا بقدر قربها من اللغة المثالية "Ideal Language " المقترحة [1]. وحقيقة هذه اللغة المثالية هي أنها تمثل لغة فوقية "Meta– Language " باعتبارها قوالب رمزية تمثل في جانب منها متغيرات "Variables" يمكن أن يستعاض عنها بعلامات لغوية و " ثوابت " "Constants"هي مجموعة العلاقات التي يمكن استخدامها للربط بين أي رمز أو علامة لغوية أخرى بصدد وصف حالة الوقائع "Fact" في العالم والتي تنعكس في الوعي على هيئة أفكار أو صوراً متخيلة ؛ لذلك يمكن لشتى اللُّغات على تباينها واختلاف كيفيات استخدامها أن توضح – وفق هذا المنظور – في الجهاز الرمزي الموحد .

إنّ هذا الجهاز الرمزي من شأنه أن يجعل عمل اللُّغة الأساس هو إثبات أو نفي الوقائع من خلال معرفة البناء اللفظي للغة . فلكي تثبت جملة ما واقعة معينة فلابد أن يكون هنالك شيئاً مشتركاً بين بنية الجملة وبنية الواقعة كيفما كان بناء هذه اللغة [2].

إذن فالجهاز الرمزي للغة المثالية المكتملة منطقياً يقوم بشكل رئيس على العلاقات بين العلامات اللغوية والتي تقابل العلاقات بين الأشياء في العالم وذلك على اعتبار أنّ إدراك الأشياء في العالم لا يتم بمعزل عن العلاقات التي تربط بين هذه الأشياء فيصبح بذلك مفهوم "الواقعة "أنها الحد النهائي في تحليل علمنا ووعينا بالعالم وهي العلاقة التي تقوم بين شيئين أو أكثر أياً كان تصنيف هذه العلاقة في جدول دالات – الصدق " Truth – Functions " الخاص بهذا الجهاز الرمزي الذي من شأنه أن يعبر عن الوقائع الذرية "Atomic Facts" بقضايا أولية "Propositions" "Elementary"وعن الوقائع المركبة بقضايا مركبة [1] .

---

(1) Russell , Rautledge Ludwig Wittgenstein ,Tractatus Logico – Philosophicus , An Introduction by Bertrnard & Kegan Paul , seventh Impression , 1958 p.8.

(2). ibid ,p .8.

(1) . ibid. PP 31 –35.

إذن فالوعي بهذا يكون مؤلفاً وفق ذات النظام المؤلف للعالم . وهذا ما جعل مكونات الوعي وفق هذه النظرية رسوماً للوقائع . ويقارن " فيتجنشاين"هنا التعبير اللغوي بالإسقاط في الهندسة، فالشكل الهندسي يمكن إسقاطه بعدة طرق تقابل كل منها لغة مختلفة إلا أن الصفات الاسقاطية للشكل الأصلي تظل ثابتة لا تتغير أياً كان الطريق الذي اتبعناه[2] .

كما يشير "فيتجنشتاين "إلى أنّ الرسم المنطقي للواقعة الذي يسميه بالفكرة يمكن أن يطابق الواقعة ويمكن أن لا يطابقها ، وبالتالي يمكن أن يكون صادقاً أو كاذباً إلا أنه في كلتا الحالتين يشارك الواقعة في صورتها المنطقية[3] .

ولكن في فلسفة " فيتجنشتاين " المتأخرة ، أدخل إلى هذه العملية الوصفية أو التصورية للغة عنصراً جديداً تمّ اكتشافه من خلال الثغرات والتساؤلات التي أثارها الاتجاه القديم ، هذا العنصر هو حالة الوعي المرتبطة بطريقة حياة الإنسان الذي يحمل هذا الوعي، مما حوّل فكرة الرسوم الذهنية للوقائع إلى رسوم ذهنية توصف بالذاتية الاجتماعية ، وذلك على اعتبار أنّ أيّاً من بني الإنسان إنما ينتمي بالضرورة إلى طريقة حياة لديها خصوصية متميزة. وطريقة الحياة هذه لا تقوم إلا بتحقيق رابطة بين الإنسان والإنسان الآخر الذي ينتمي إلى ذات الفئة الاجتماعية وظروفها البيئية . لذلك كانت طرق الحياة هذه متغايرة فيما بينها بدرجة كبيرة . وجدير بالذكر أنّ كل طريقة من طرق الحياة هذه هي التي تتحكم بشكل أو بآخر في تأليف الرسوم الذهنية على الوقائع والحوادث في العالم بكيفيات متغايرة فتكون بذلك الصورة الذهنية مرتبطة بالذاتية الاجتماعية التي هي طريقة حياة الجماعة أو الكتلة الاجتماعية التي ينتمي إليها بالضرورة حتى يضع هذه الرسوم الذهنية .

وعلي هذا فإنّ طريقة الحياة تمثل زاوية الانتباه للوعي على أي ظاهرة كونية ومن ثم يأتي الحكم على هذه الظاهرة عارضاً لثقافات مختلفة وقد تبدو متباعدة في جوهرها . ونخلص من هذا إلى أنّ المقصود بالوعي هو الكيفيات الذهنية والسلوكية التي تفرضها طريقة الحياة فتشكل المزاج العام للشخص ومردوداته الانفعالية [1] ، الأمر الذي يمكننا من استنباط أن ليست هنالك أسبقية للرسم الذهني أو للعلاقات المنطقية أو للوقائع في العالم،وذلك بما تتضمنه هذه الفكرة من إمكانية تعدُّد الرسوم الذهنية على حالات الوقائع بما يخدم اتجاه الظاهراتية الهوسيرليانية في قولها بتعدد زوايا الانتباه للوعي إلى الظواهر في العالم ، وهو أيضاً ما يبرر بدوره أن تعدُّد كيفيات الاستخراج اللغوي إما هو لاحق وتابع لتعدد الرسوم الذهنية على الوقائع ، على أن يتم فهم تعدد هذه الرسوم الذهنية لا باعتبارها صوراً ذاتية لا تحكمها قاعدة أو قانون وإنما باعتبارها زوايا انتباه متعددة على جوانب موضوعية متعددة من الظاهرة أو الواقعة الواحدة المعينة بحيث يمكن أن تؤلف مجمل الرسوم الذهنية حالة الظاهرة أو الواقعة في مجملها .

---

(2) ibid, p . 9 .
(3) ibid , p 10
(1) انظر . Ludwig Wittgenstein , The Blue &Brown Books , Basil Blackwell , Oxford , 1960

ويمكن القول أنّ الشيء الذي يحتل الأهمية الكبرى بصدد هذه الفكرة أنها تمثل مستنداً فلسفياً لمقررات فيزياء الكوانتم حيث لا يحسب حساب القوانين التي تتحكم في سلوك الجسيم الفرد، بل توضع مباشرة القوانين الإحصائية التي تنبئ عن سلوك الجماهير ، فمن المستحيل – حسب فيزياء الكوانتم – أن نعلم في لحظة واحدة مكان الجسيم وسرعته وأن نتنبأ بمساره المستقبلي بالشكل الذي كنا نفعله في الفيزياء الكلاسيكية ، ففيزياء الكوانتم تتناول الجسيمات باعتبارها مجموعات [1] .

لذلك كان من نتيجة هذا أن صار التحليل الموضوعي الشامل على المستوى الإنساني يتم من خلال الحكم على الفرد بكونه بالضرورة ينتمي إلى حقل اجتماعي يرتبط فيه حتماً بوسائط اتصالية مع كافة أفراده وذلك يضع مفهوم " الألعاب اللغوية " "Language – Games" الذي أسس له "فيتجنشتاين " في مجال الفلسفة التحليلية المعاصرة ، وذلك بما يتوافق تماماً مع نظرية " المجال " Field" في الفيزياء الحديثة ؛ أي أنّ تقييم الأفراد لا يتم إلا من خلال الحقل أو المجال الذي ينتمون إليه .

بهذا يتضح أنّ قمة الهرم الفينومينولوجي الهوسرلياني وهو منهج الإيضاح يمثل عند " فيتجنشتاين" الوسيط الاتصالى بكافة أشكاله ومستوياته التركيبية " Syntax " والدلالية "Semantics" والتداولية "Pragmatics " و الناقل الحتمي الضروري لتلك التفاعلية الثلاثية بين الوعي والموضوع والتي يمكن نقلها فيما بعد إلى تفاعلية رباعية تمثل مستوىً اتصالياً يقوم على مبدأ تعدُّد المستويات الدلالية تبعاً لتعدُّد كيفيات الاستخدام، والمعنى هنا دخول مجال " الوحي" بنحو أصيل بافتراض ذات المنطق الذي أدى إلى إثبات التفاعلية الثلاثية التي أصدرت بالنتيجة ما أمكن تسميته عند " فيتجنشتاين" بـ " دالة صورة العالم"The Function of World Picture" وهو ما استند عليه أهم فلاسفة العلم في الوقت الراهن كمبدأ منطقي يعمل على تمديد التصورات العلمية "ScientificConcepts" التي تنتجها النظريات العلمية " Scientific Theories" والمقولات العلمية "Scientific Categories" " التي ينتجها منهج الإجراء العلمي " Scientific Process Method " مثل قضية الدور الفاعل للوعي العلمي في مراحل الملاحظة وخلق التجربة والاستدلال والكشف . ومن هذا ما ذهب إليه هانسون "R. N Hanson" فيما يعرف بالاتجاه الامبريقي الرياضي الذي قدمه في كتابه "Patterns of Discovery" حيث تصور أن هنالك جوانب متعددة للملاحظة العلمية "Observation cientific" في حد ذاتها، ويمكن حلها عن طريق الأشكال الجشطالتية " Gechtalt " بالإضافة إلى الرياضيات ، وذلك التصور يضفي بعداً جديداً على تفسير الملاحظة العلمية بصورة تخضع الملاحظة ذاتها للعمليات الرياضية، وعلى هذا الأساس يرى " هانسون " أن الملاحظين لا يريان الشيء ذاته وهما أيضاً لا يبدآن من المعطيات عينها ولا ينتهيان إلى النتيجة نفسها مع أنهما على وعي تام بشيء واحد، ومن هذا المنطلق يمكن تصور وجود أكثر من معنى واحد للملاحظة ، حيث هناك معنيان لكلمة يشاهد ،

---

[1] البيرت أينشتاين ، ليبولد أنفلد ، تطور الأفكار في الفيزياء ، من المفاهيم الأولية إلى نظريتي النسبية والكم ، منشورات وزارة الثقافة ، سوريا ، 1987 ، ص 298.

المعني الأول هو ما عرف منذ بداية العصر الحديث بالمعنى الموضوعي "Objective" الذي يعني تركيز الانتباه على كل جوانب الظاهرة وتمييز أوجه الاتفاق والاختلاف فيها وتمييز عناصرها بدقة والعناية بتدوين التفاصيل المشاهدة فحسب دون تدخل الذات في عملية الملاحظة ذاتها ، والمشاهدة بهذا المعنى يطلق عليها " هانسون" المشاهدة المحايدة"Neutral" حيث يرى العلماء بمقتضى هذا المعنى الشيء نفسه ، أما المعنى الثاني فبموجبه لا يشاهد العلماء الشيء نفسه فهم يشاهدون الظواهر الخارجية من خلال الذات، حيث نجد العلماء يفرغون تأويلاتهم الداخلية والخاصة على الأشياء، فكأنّ المعنى الموضوعي هو ما يمكن أن نطلق عليه مصطلح التفسير أما المعنى الثاني فيمكن أن نطلق عليه مصطلح التأويل،ووفق المعنى الثاني فقط نستطيع التوصل لمعطيات علمية يتم بناءاً عليها تركيب نظريات علمية جديدة[1].

أما عن أصل منطق تلك التفاعلية الثلاثية في أطروحات " فيتجنشتاين" فيتمثل في التساؤل حول إمكانية تصور علاقة مباشرة بين الكلمة "word " وموضوعٍ ما؛ فيقرَّر " فيتجنشتاين" أن ليس هنالك مرجعاً دلالياً مباشراً للكلمة ؛ إذ تتحدّد معاني الكلمات حسب اختلاف السياقات المستخدمة فيها ؛ أي ليس هنالك حد صارم للمعاني بل تتألف المعاني وفقاً للظروف والأحوال التي تستخدم فيها مما يستتبع أن لا تكون اللغة صيغ مجردة تخلق بمعزل عن الوقائع ، فاللغة في هذا الأصل هي كل ما يمكن أن يشار به إلى موضوعٍ ما يمثِّل تصوراً لواقعة كونية. وعلى هذا يصبح منطلق الفهم للعملية اللغوية هو من الدلالة وليس من اللفظ المجرد ،وهذا لا يمنع تحقيق ما يمكن تسميته " مبدأ الاستعارة اللغوية " بأن يتم تعدُّد كيفيات استخدام المفردات اللغوية حسب طرق الحياة طالما أنها ستؤدي إلى إطلاقها على وقائع تخضع لذات الشروط الإدراكية الموضوعية للوقائع الكونية في مجملها .إذن ليس الأمر أن تتعدد كيفيات استخدام الألفاظ اللغوية ، إنما الأمر هو الإشارة إلى وقائع تمثِّل دلالات موضوعية . إذن لن نخرج بالتالي بحال عن دائرة أن اللغة هي مجموعة من الأسماء تتحدد حسب سياقات الاستخدام بكونها تشير إلى وقائع ، فإذا بدأنا من المدلول "الواقعة" سهل من ثم تعريف اللفظ أو العلامة اللغوية التي يشار بها إلى هذا المدلول في الألعاب – اللغوية ذات قواعد الاستخدام المنتسبة إلي طريقة معينة في الحياة . بهذا يكون من غير الممكن إعطاء اسم واحد لشيء واحد واسم آخر لشيء آخر على نحو قسري [2]. فقبل أن يتمكن الشخص من إيجاد دلالة ما اصطلح له الاسم لابد له أن يرجع إلى الأصل العام الذي أسماه " فيتجنشتاين" ألعاب – اللغة " Language – Games "،وتمثل فكرة ألعاب – اللغة هذه موقفاً نقدياً بصدد إشكالية " الكليات " Universals " التي كانت أحد نقاط الخلاف الهامة في تاريخ الفكر الفلسفي التي لم تقبل بطبيعة حالها حسماً قاطعاً . فيرفض "فيتجنشتاين" ذلك المثال الأفلاطوني الذي يضم جميع أفراد نوع ما في فئة واحدة كلية متحققة خارج العالم الفعلي الذي يشمل الوجود الطبيعي لذوات هؤلاء الأفراد ، كما يرفض " فيتجنشتاين" كل التبعات الجدلية التي نتجت عن هذا التصور الأفلاطوني سلباً وإيجاباً ، فكل ما هنالك – في نظر

---

(1) الموسوعة الفلسفية العربية ، معهد الإنماء العربي ، 1986 ، ص 35- 36 .

(2) Donald Polking Horine , Methodology for the Human Sciences , State University of New York Press 1983 ,p. 105 .

" فيتجنشتاين"- أن الأمر متعلق باللغة وأنّ اللغة ما هي إلا ألعاب " Games " أي دلالات لطرق الحياة الإنسانية المختلفة وليس للموضوع المادي الثابت والموحد ترتبط فيما بينها بمشابهات أسماها " فيتجنشتاين" " المشابهات العائلية " Family Resemblance" تتحقق وفق الكيفيات المتغايرة والمتباينة في الاستخدام للعلامة اللغوية " Language Sign" بقدر اختلاف وتميز الوقائع التي تشير إليها ، فكل واقعة تحمل خصوصية فردية في ذاتها وفي إدراكها وفق مبدأ اختلاف طريقة الحياة ، لذا لا تصلح أن تكون كلمة "لعبة" هنا حدا كلياً "Universal Term"[1] .

وهو بذلك يعطي صورة من صور نظرية المواضعه اللغوية "Conventional Theory Of language" والتي تقول بوجه عام أنّ اللغة ظاهرة اجتماعية وصناعة إنسانية ، وأنّ الإنسان هو صانع الألفاظ وقواعد تركيبها في جمل صحيحة وقواعد استخدام الكلمات "Words" أو الرموز اللغوية "Linguistic Symbols" بهذا يوضح " فيتجنشتاين" أنّ العملية الاتصالية اللغوية وتأليف العلامات اللغوية من جهة البناء" Syntax" والدلالة والمعني "Semantics" إنما هو أمر يقاس وفق سياقات مبدأ "القاعدة Rules "وليس "القانون Law" فالقاعدة تضبط النشاط اللفظي وفق سياقات الاستخدام في حين يضبط القانون وضع وتأليف الوقائع ، وذلك على اعتبار أنّ " القاعدة " هي شيء عرفي قائم على موضوعات تلقائية أو غير تلقائية لدى الناس بحسب وحداتهم الاجتماعية "Social Groups " ؛ فهي إذن شيء يمكن كسره وتغييره وتعديله ، بينما " القانون" هو ما يفترض فيه الثبات والضرورة والتعميم على غرار القوانين الطبيعية التي تحكم العلية المادية " Causality" للكائن. لذا كان المبدأ الضابط للاستخدام اللغوي المعين عند " فيتجنشتاين" هو مبدأ " القاعدة " باعتباره الإطار المنطقي الأكثر ملاءمة لفكرة "ألعاب – اللغة " من جهة القياس التمثيلي "Analogy" القائم بين اللعبة "Game" واللغة "Language" من حيث وضع القواعد المنظمة للفعل ، فكما أن هناك ألعاباً شتى ذات قواعد متباينة وقابلة للتعديل والتطوير ، كذلك تعامل اللغة عبر عدد يكاد لا يحصى من الجماعات اللغوية"Language Groups" المختلفة في بيئاتها وطرق حياتها [1]. من هنا صار النموذج المعرفي هو نتاج الصلة التبادلية المتكافئة وغير الترجيحية بين الوعي والموضوع والوسيط الصوري بينهما .

(ب) تصور التفاعلية الرباعية في قراءة النظام المعرفي القرآني :

يمكن القول أنّ بناء النظام المعرفي واستخدام أدوات " فيتجنشتاين" المنهجية التحليلية في ذلك هو أمر يفرضه التوظيف الحياتي الإنساني للقوانين الفيزيائية الصارمة ، والحال هنا ليس ضرباً لمبدأ " القانون " وإنما استغراق مبدأ " القانون" في دائرة أشمل وأعم هي " القاعدة " وذلك في إطار التفعيل الغائي لحياة الإنسان المكلف بمقتضى وعيه بما في ذلك توظيفه للقانون العلمي الصارم بكيفيات قيميه متغايرة .

---

(1) Ludwig Wittgenstein , Philosophical Investigations , Translated to English by , G.E Anscombe , Basil Blackwell, Oxford , 1958.

(1) Hilary Staniland ,Universals, The Macmillan Press LTD, London , P.54.

ويمكن القول بأنّ منهج " فيتجنشتاين" التحليلي اللغوي وأصوله في الفكر المعاصر قد أثبت بدعم من مقررات النظريات العلمية المعاصرة " النظرية النسبية وميكانيكا الكم " أنّ النموذج المعرفي العلمي يبنى بالضرورة وفق تفاعلية ثلاثية لا انفصام بين طرفيها هي تفاعلية الكون والوعي والمجال الصوري ؛ فالفهم العلمي وثيق التأثير باتجاهات البنية العقلية والوجودية للإنسان ومحددات زوايا الانتباه لديه والوعي الإنساني في الطرف الآخر محكوم بالمعطيات الكونية الضرورية . وعلى هذا فعملية الفهم وتأسيس النموذج المعرفي هي علمية تكاملية بين الكون والوعي وموضع هذا الموقف في الفلسفة العلمية المعاصرة هو ما قرره كل من توماس كون "Th. Kuhn"وهانسون "Hanson"وتولمن "Tolmine" بأنّ : العلم هو بحث في الفهم "Understanding" ومن ثمّ فهو نشاط تصوري "Conceptual Activit" وفي هذا الصدد يؤكد " هانسون " "أنّ علم الفيزياء ليس مجرد مظهر نسقي لمعاني العالم، وإنما هو كذلك طريقة تفكير في العالم ، أو بالأحرى طريقة في تأليف التصورات بصدد العالم " [1].

وعلى هذا النحو ، فإذا كان في السابق أن المنظور العلمي القائم وفق مقررات الفيزياء الكلاسيكية – فيزياء "نيوتن"كان يتجه نحو جعل الفكر والنظرية مرهونة بالكلية للقوانين الطبيعية الصارمة والموضوعية والتي من شأنها أن تطبع العملية الفكرية بطابع الحتمية القاطعة فلا يكون هنالك سوى فكر واحد يطابق حقيقة علمية واحدة ولا حرية في ذلك ، فإننا نجد أنّ مقررات الثورات العلمية الراهنة والتي تمثلت في نظريتي النسبية لـ "أينشتاين" " A.Einstein, Theory of Relativt" والكم لـ "ماكس بلانك" " Max Blank Mechanics Quantum" قد أحدثا انقلاباً في عالم فيزياء "نيوتن" وتبعه بالضرورة انقلاب في الفكر العلمي النظري المحيط بهذه النظريات الفيزيائية ، فاستبدلت من ثم حتمية "نيوتن" الصارمة بفكرة "البارادايم" "Paradigm"عند كل من "كون " و "هانسون" و "تولمن"، وكانوا في هذا تابعين لفكرة المعنى كاستخدام "Use Meaning as" وفكرة صورة العالم "World Pictur". ويمكن لنا في هذا الصدد أن نستنبط حداً فاصلاً بين ما يمكن أن يدعى بفاعلية الـ "Reason" وفاعلية الـ "Mind" ؛ من واقع حال التطورات السالفة الذكر في الفكر الأوروبي المعاصر . فإذا كانت الفاعلية العقلية متوافقة مع مقررات الفيزياء الكلاسيكية هي فاعلية الـ "Reason "فإنّ ما قد صار متوافقاً على نحو ضروري مع تغيرات الراهن المعاصر هو فاعلية الـ" Mind "، ويمكن أن يتضح هذا من خلال القائمة التالية مع ملاحظة أن استخدامنا للمفردات الإنكليزية "Reason "التي تعني في المقابل باللغة العربية "عقل" و "Mind" التي تعني أيضاً في المقابل باللغة العربية "عقل" يرجع إلى أنّ هذا التمييز لا يظهر إلا وفق الدلالة الاصطلاحية للمفردتين في اللغة الإنكليزية .

فاعلية الـ Reason	فاعلية الـ Mind
عقل حسابي	عقل انفعالي

[1] N.R .Hanson , Patterns of Discovery , Cambridge University Press . 1955 , p.30.

الإستنباط والإستقراء المنطقي	الإحساس والشعور
Logical Deduction & Induction	Feeling & Sensation
نسق صوري رمزي	أنظمة صورية تداولية
Formal Symbolic System	Formal Pragmatic Systems
موضوعي	ذاتي
Objective	Subjective
القوانين الفيزيائية والرياضية	القواعد السايكلوجية
Math & Phys Laws	Psychological Rules
ذكاء صناعي	ذكاء طبيعي
Artificial Intelligence	Natural Intelligence
اللغة الإصطناعية	اللغة الطبيعية أو العادية
Artificial Language	Natural -Ordinary Language
؟؟؟	الرؤى الكونية الشاملة
	Pardigms World View

من هذا الجدول قد يظهر جلياً أنّ فاعلية الـ "MIND" هي المعنية بإصدار الرؤية الكونية الشاملة أو ما يعادل فكرة النموذج المعرفي "Paradigm" ، لذا يمكن تصور أنّ فاعلية الـ "Mind" هذه هي الفاعلية الحقة في قراءة النظام المعرفي القرآني من جهة تعلقه "بالوعي"، على اعتبار أنّ فاعلية الـ "Mind " تبدو بمثابة الدائرة الشاملة التي تختزل في داخلها مجمل مقررات الـ "Reason "بحيث يمكن تصور أن تطور الوعي العلمي عند بلوغه إلى مرحلة متقدمة قد يؤدي ب "Mind" إلى الوصول بشكل ضروري إلى درجة الدقة والحسم في التعبير عن الوقائع التي لا يعود هنالك معها فارقاً بين "Mind" و "Reason" . وهذا التصور يمكن إيضاح أصله من خلال عرض المسألة المنطقية الاستنباطية والاستقرائية على النحو الذي يظهر إشكالية "نقطة البدء المعرفي" كما يلي :

إنّ السؤال المطروح حول نقطة البدء المعرفي للوعي أو الخبرة الإنسانية هو ما إذا كانت النقطة معطاة بإجراء الاستدلال الاستنباطي أو بإجراء الاستدلال الاستقرائي ؛ وذلك على اعتبار أنّ الاستدلال الاستنباطي" Deductive Inference " هو وضع مقدمات عامة كلية تستغرق جميع أفراد أو حالات النوع أو الفئة المعينة في هذه المقدمات ومن ثم إسقاط الحكم العام على فرد واحد فقط أو جزئية واحدة فقط من أفراد أو أجزاء الفئة ، ومثال ذلك قولنا :

كل إنسان فان "المقدمة الكلية العامة المستغرقة لكافة أعضاء الفئة " ، سقراط إنسان "الإشارة إلى علاقة الفرد بالفئة "، إذن سقراط فان "الحكم المسقط بالضرورة على الفرد".

والشاهد هنا أن هذا النوع من الاستدلال يتطلب أن يحصل العلم بالحكم الكلي على كل أفراد فئةٍ ما بشكل جامع مانع من قبل القيام بعملية الاستدلال الأمر الذي يجعل هذا الاستدلال يتصف بصفة الضرورة القطعية واليقين المطلق وهو ما قام عليه الدليل الرياضي في مجمله ، لذلك كان هذا الاستدلال هو الأداة المنطقية التي اتخذها أتباع المذاهب الفلسفية المثالية في تبريرهم القول بإمكان الحقيقة العقلية اليقينية المطلقة والكلية وأن المصدر المعرفي لهذه الحقيقة هو وجود الكليات كمبادئ أو معارف قبلية "Apriori" فطرية في الذهن الإنساني ، ومن ثم الإقرار بأنّ المعرفة الكلية اليقينية إنما هي معرفة عقلية مجردة متجاوزة للمعطيات الجزئية والتجربة الحسية .

أما الاستدلال الاستقرائي "Inductive Inference" وهو الانتقال إلى حكم كلي عام يتم إصداره جراء إحصاء عدد من حالات أو أفراد أو أجزاء الفئة وليس كل الفئة ، وهو ما يمكن أن يعبر عنه بالمثال التالي :

أ.قطعة من الحديد "الحالة الجزئية" ،

أ.تتمدد بالحرارة "الحكم على الحالة الجزئية"،

إذن كل الحديد يتمدد بالحرارة "الحكم الكلي العام على مجمل الفئة".

والشاهد هنا أن الاستدلال الاستقرائي باعتماده على الشواهد الجزئية والحالات الفردية يعطي حكماً احتمالياً أي بدرجة تحقق نسبة معينة في المائة على اعتبار أنّ الإحصاء التجريبي لعناصر المقدمات يقع على البعض وليس على الكل فيصبح الحكم الكلي للاستدلال قانوناً يقينياً إلى حد ما لم تظهر شاهدة واحدة معارضة فيتحول الحكم في مجمله . هذا وقد مثل هذا النوع من الاستدلال الأداة المنطقية لدى أتباع المذاهب الفلسفية التجريبية في تأكيدهم على تحديد المعرفة بالتجربة الحسية وحدها ورفض فكرة الكليات والمبادئ المعرفية القبلية ، فالمعرفة هي فقط المعرفة التي تلي أو تعقب إجراء التجربة الحسية "Posteriori" وأيضاً اعتمادهم على نوع الاستدلال هذا في مجال العلوم الطبيعية .

ولكن يلاحظ أنه في مرحلة متقدمة من تحليل الأصل المعرفي لنوعي الاستدلال هذين بصدد تحديد نقطة البدء المعرفي تختلط الحالة الاستقرائية بالحالة الاستنباطية ويتداخلان بنحو يصعب معه التحديد القاطع لنقطة البدء المعرفي وأسبقية نوع استدلال على نوع آخر ؛ فالمقدمة الكلية في الاستنباط "كل إنسان فان" تقضي بوجوب الإحصاء الاستقرائي لأفراد الفئة "إنسان" واصدار نتيجة الحكم الاستقرائي الكلية بصدد انتمائها إلى الفئة "فان" وذلك بإجراء سابق على إقامة الاستدلال الاستنباطي ؛ أي أنّ المقدمة "كل إنسان فان" كمقدمة كلية للاستدلال الاستنباطي قد تم إصدارها في الأصل بحكم استقرائي ، وذلك على النحو التالي:

أ.إنسان،

أ.فان،

أ.إذن كل إنسان فان،

ومن ثم تصبح هذه النتيجة هي خطوة البدء في الاستدلال الاستنباطي المعين. كذلك بالمثل تبدو المقدمة الجزئية في الاستدلال الاستقرائي ذات أصل استنباطي؛ وذلك بنسبة عنصر الفئة (أ) إلى كل الفئة "حديد" وهي نسبة استنباطية تمثل الحكم الناتج في الاستدلال الاستنباطي الذي يمكن تصوره على النحو التالي :

كل ما يتصف بالصفة (ب) هو حديد ،

(أ) يتصف بالصفة (ب) ،

إذن (أ) حديد.

فهذه النتيجة الاستنباطية تمثل المقدمة الابتدائية في الاستدلال الاستقرائي .

وهكذا تتعاقب الأصول المنطقية بما يشكِّل دائرة صحيحة غير معلومة البدء والمنتهى، الأمر الذي من شأنه أن يدعم الاتجاه القاضي بعدم الحديث عن أسبقية معرفية أو بعدية معرفية للوعي على الوجود وإنما هما عنصران متداخلان متلازمان في ذات اللحظة عبر الرابط المنطقي التجريدي دونما تحديد بداية لأحدهما ونهاية للآخر . وهذا ما قد يجعل من المنطقي تماماً افتراض أن ما لديه أسبقية معرفية ليس هو الوجود أو الوعي أو الوسيط الصوري وإنما هو عنصر رابع هو الذي يعطي هذه التفاعلية الثلاثية التقليدية ويتحكم في هذا التداخل الثلاثي بين الوجود والوعي والنظام الصوري ، إذ لا يمكن تحقيق هذه التفاعلية الثلاثية والتداخل الثلاثي من محض إرادة الوجود أو الوعي أو كليهما وإنما لا بد بالضرورة من هذا المجال الرابع السابق عليهما ، ولا يمكن أن يكون هذا المجال الرابع إلا الوحي . لذلك لم يعد هنالك تفاعلية ثلاثية اعتباطية وإنما هي بالضرورة تفاعلية رباعية منضبطة ومرشدة.

من هنا قد يتأكَّد أنّ المجال الفاعل في تأليف مفهوم "التفاعلية الرباعية" في قراءة النظام المعرفي القرآني هو مجال الـ "Mind" وليس الـ "Reason" . أما في الراهن فإنّ الشاهد أنّ هذه الفاعلية للـ "Mind" إذا ما تُرِكَت لحالها أو توقفت عند حد التفاعلية الثلاثية المؤلفة من قراءة "الكون والوعي والنظام الصوري" فإنّها ستؤدي حتماً إلى ما أدت إليه في الفكر الأوروبي المعاصر من اتجاهات ارتيابية وشكية يختل معها الموقف القيمي والأخلاقي والعقدي ، لذلك كان لا بد لها من أن تضبط وفق العنصر المنهجي المحوري والأكثر أهمية بكونه مهيمناً بالضرورة على باقي العناصر الأخرى وهو عنصر "الوحي" .هذا ، ويمكن أن نتلمس بعض الإشارات الدالة على تأليف هذه التفاعلية الرباعية من خلال إعادة القراءة لبعض نصوص القرآن الكريم على النحو التالي:

1/قوله تعالى: [**وعلّم آدم الأسماء كلها**]" البقرة آية :31" قد يفيد تأييداً لمقررات المذهب المثالي، وذلك إذا فهمنا لفظة "علّم" بأنها تفيد معرفة قبلية "Apriori" بوضع العلامات" To put aSign"على غرار لصق البطاقة ، أو من "التعليم" "To teach" برسم حصيلة الدلالات الكونية كلها في الذهن مما قد يكون أقرب إلى اعتبار لفظة "الأسماء" هنا بمثابة الرموز" Symbols"" الدالة منطقياً على المدلولات الكونية . ذلك في حين يبدو أن قوله تعالى: **[والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً**]"النحل آية: 78" يفيد تأييداً لمقررات المذهب التجريبي، باعتبار أن ليست هنالك معارف سابقة وإنما المعرفة هي جماع الخبرة التي تحصل بعد الخروج إلى العالم . لكن يمكن القول إن ما يظهر هنا لا يبدو تناقضاً وانما هو الجمع بين مقررات المذهبين التجريبي والمثالي ، وهو ما أكدته البحوث الفلسفية المعاصرة السالف ذكرها.

2/ قوله تعالى :[**ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير**] الحج آية : 8" قد يفيد تصور الصلة الرباعية بين : "المجادلة "عن المجال الصوري ؛ والمقصود الدلالة على الوسيط التجريدي الاتصالي الذي يقوم بفعل الإيضاح والإظهار سلباً أو إيجاباً "العلم" عن الوعي ؛ والمقصود أنّ العلم هو حالة الوعي المنضبطة وفق المنظومة الرباعية بكاملها والتي يهيمن عليها عنصر الوحي ، وذلك بافتراض أنّ الفارق بين العلم والمعرفة هو أنّ العلم يقوم على مبدأ "القانون" بينما المعرفة تقوم على مبدأ "القاعدة "+ "الهدى" عن الكون ؛ والمقصود صدق الصورة الذهنية قياساً على الواقع الموضوعي في مجمله أو في جانب منه تم توجيه زاوية الانتباه إليه " الكتاب المنير" عن الوحي فيبدو من الواضح ضرورة ارتباط المجادلة "المجال الصوري" بالعلم "الوعي" وبالهدى "الكون" وبالكتاب "الوحي".

ويمكن القول بأنّ ما يمكن أن يكون مضمراً في هذه النصوص أنها تشير إلى الوعي باعتباره حالة اجتماع الخبرة التي تأتي للإنسان عبر الحواس ثم تدخل إلى عالم نفسي متميز يوالف هذه المعطيات الحسية الإدراكية " Sense Data" بكيفيات يحكمها ما يمكن تسميته بزاوية الانتباه – وهذا يردنا مرة أخرى إلى الفلسفة الظاهراتية – والتي تقاس عند علماء الرياضيات بما يعرف بـ "نظرية الكوارث" وهي لا تعني فقط الحادث المأسوي بل تعني تلك القفزة الخارجة عن المألوف في سياق سلسلة من الحوادث المنسابة بشكل مستمر وهادئ إذ أننا كثيراً ما ندرك شكلاً على أنه يمثِّل شيئاً معيناً بمجرد توجيه الطلب إلينا بإدراكه على هذا النمط ، ولكن سرعان ما تبدأ عملية التبديل بين أوجه الاستقرار المختلفة بلعب دورها ونقلها بالتالي إلى وجه آخر من أوجه إدراك الشكل موضوع البحث . ومن ثم يمكننا أن نقدم فرضاً مفاده أنه في الجمل المعقدة – كالدماغ الإنساني – تختلف الآلية التي تحدد كل وجوه الاستقرار المتعددة لظاهرة إدرا كية معينة عن الآلية التي تنتقي أحد هذه الوجوه لجعلها مادة مدركة في لحظة معينة ففي حالة الأشكال المبهمة مثلاً يبدو أن الجزء من الدماغ الذي يحلل ما نرى يكون عاجزاً عن جمع نتائج التحليل في هيئة قضية مدركة ، بل يمرر تلك النتائج إلى قسم آخر لاتخاذ قرار حول الصيغة

المدركة المرجوة ، وغالباً ما يستند هذا القرار إلى قواعد غريبه عن موضوع الصورة المشاهدة [1]. بهذا يتحدد أن الإدارك لا ينفك عن حالة وسمات الذات المدركة فتعطي الكمات الحسية المعينة أنماطاً كيفية متغايرة . وفي هذا المجال أصدر الباحث الفلسطيني الأصل "خالد عزام " نظرية علمية جديدة في مجال الفيزياء النظرية عرفت بـ "نظرية الكومالوجيا " Comological Theory" وكان أن تم نشر هذه النظرية بمركز أبحاث"Time Travel Researchssociation" بالولايات المتحدة الأمريكية ، وذلك لأهميتها البالغة . ومفاد هذه النظرية :

إنّ مصطلح "Comalogia "هو مصطلح مؤلف من مقطعين هما :"Co مشتق من كلمة وعي " Consciousness "و"Ma " وهو مشتق من كلمة مادة "Matter " ومن هنا كانت النظرية في حقيقتها نظرية فلسفية تقوم على دراسة العلاقة بين الوعي والمادة كنتاج للجمع بين نظريتي ميكانيكا الكم "مدرسة كوبنهاجن" والنسبية العامة والخاصة لـ "أينشتاين" ، وهي بهذا تطرح عدداً من التصورات أهمها – في هذا المقام – هو ما سمي "بالوحدة الفكرية" "Thought Unit " ومفادها أنّ أي نظام أو نسق "System " في الكون لديه وحدة فكرية تمثل حقيقة وجوده أو ما هيته بالنسبة إلى ذاته . وأنّ أي نظام أو نسق في العالم المادي يتمثَّل بالنسبة إلى ذاته عبر الوسائط المعلوماتية "Information Elements " الناقلة للوحدة الفكرية خاصته، بحيث يتم استقبال المعلومات لدى الوسائط المعلوماتية هذه في حالة حلول النظام إذ أن أي وسيط معلوماتي إنما يتم حمله عبر النظام الراهن ، هذا ويمكن أن تتجلى هذه الوسائط المعلوماتية على هيئة كتله "Mass" أو طاقة أو مكان أو زمان أو أي معرفة واعية تتبدى على هيئة أفكار[1].

من جانب آخر في هذا الاتجاه ، نجد أنّ عالم اليوم هو عالم "النسبية" "Relativity " وميكانيكا الكم "Mechanics Quantum " التي هي قسم الفيزياء الذي يدرس ظاهرة الميكروكوزم أو الأجرام المتناهية الصغر والتي كان من نتائجها الفلسفية أن أدخلت مفاهيم : دور الملاحظ " Role of the Observer" وسقوط السببية "Collapse of Causality " وحرية الإلكترون "Free Well of the Electron" وغير ذلك [1] وما ترتب عليها من تصورات انفلات مفهوم المادة جراء الانعكاسات المتبادلة "الكون – الوعي" الأمر الذي أفرز ما يسمى بظاهرة "الشذوذ السببي" "Causal Anomalies" والتي تتجاوز القياس الاستقرائي التقليدي ويفقد بصددها عنصر التنبؤ العلمي[2] وقد أوضح هانز رايشنباخ Hans "Reichenbach " في حديثه فيزياء الماكروكوزم " Microcosm Experience " أننا نستطيع أن نتصور عوالم مثلما يحدث في خبرة الماكوكزم "Macrocosmic Experience " يكون من المستحيل فيها فيزيائيا التحقق "Verifiability"

---

(1) فايز فوق العادة ، نحن والرياضيات ، دار الفكر ، سوريا ، الطبعة الأولى ، 1987، ص 185.

(1) Azam, Comalogical Theory . Time - Travel Researh Assoociation , PP .1-8.

(1) Dictionnary of philosophy , Edited by : 1. Frolor, Progress Publition , 1984,p . 348.

(2) Roobert Ackermann , An Introduction to Many - Valued Logic . Routlledge & kagan Paul, London , 1967, p.24.

والتكذيب "Falsification " لقضايا تجريبية معينة ، وذلك فقط لأن في خبرة "الماكروكزم" أي قضية نعتبرها قضية مكتملة المعنى تجريبيا فإنها تبدو على الأقل محتملة التحقق أو محتملة التكذيب"[3] .

من هنا ظهر ما يعرف بـ "منطق القيم المتعددة" " Many-Valuedogic" كمنطق لا معياري Non Standard " Logic" يتيح قيم أخرى لا تقرر العلم القاطع المتمثل في الحكم المقتصر على الصدق " True" والكذب "False" في المنطق الثنائي القيم الموافق لمقررات الفيزياء الكلاسيكية ، فأصبح منطق القيم المتعددة في إطار صياغات الحساب المنطقي "Logical Calculus " هو الاقتراح البديل لمنطق القيم الثنائية التقليدي لتفسير وتطبيق مقررات ونتائج "ميكانيكا الكم" [4] بكونه يفرض قيما محايدة تدل على مناطق الوعي الغامضة وغير القابلة للفصل فيها بحكم قاطع بالصدق أو الكذب ، الحق أو البطلان . الأمر الذي يظهر أن جل الأساس المعتمد عليه في إقامة منطق للقيم المتعددة هو أساس سمته الجوهرية نقص العلم وقصور الوعي عن إدراك الوجود على نحو كلي في لحظة زمانية حاسمة . فمنطق القيم المتعددة إنما هو إفساح المجال لمساحة الفاقد المعرفي في الوعي البشري وإظهار عنصري الاحتمالية والنسبية على الأحكام كضرورة منطقية مؤداها عدم القدرة على التنبؤ العلمي القاطع بتحول الظواهر في اللحظة المستقبلة وفق القواعد والمعايير العلمية الراهنة من جهة ، ومن جهة أخرى عدم قدرة العقل البشري على الإيفاء بجميع العلاقات السببية المعقدة التي تربط الظاهرة موضوع الحكم بظواهر الكون الأخرى على شدة اختلافها وتنوعها وكثرتها في لحظة الحكم، إذن فمنطق القيم المتعددة نابع من اعتراف البشر بقصورهم الذهني المجرد . وربما يشير إلي ذلك قوله تعالى:[**وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغني من الحق شيئاً**] " يونس آية :36".

إذ أن الظن" Conjecture" هو عدم القطع بالحق الذي يمثل في المنطق دالات الصدق للقضايا . كما يمكن القول بأنّ هذا "الظن" كان نتاج التفاعلية الثلاثية غير المسترشدة بالوحي . فإذا ما تقيد الأمر بالوحي كان قوله تعالى : [**فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنىّ تصرفون**] "يونس آية :32"؛هو الإشارة إلى إمكانية التعرُّف على مجمل الدلالات الكونية التي تحسم الحكم في أي قول بأنه صادق " True" أي ينتمي إلى فئة الحق أو أنه كاذب "False" إي ينتمي إلى الضلال، و في هذا تبرير كاف لما يعرف بمنطق دالات الصدق الثنائي القيم"TheTwo-Valued Truth" Functional Logic" " ، هو القيد الذي يكسر حجة منطق القيم المتعددة وما ومايتبعه من تبعات شكية وإرتيابية ، كما أن قوله تعالى هذا قد يعني تأييد فكرة التفاعلية الثلاثية ولكن بمستوى أعلى تكون مشروطة فيه بفاعلية الوحي الذي هو الضامن الوحيد لليقين مما يصح معه القول بأن عنصر الوعي وفق فاعلية الـ "Mind" هو الانفعال الإدراكي بزاوية معينة على كتلة الحق الواحدة متعددة الجوانب ، بحيث لا يخضع هذا الوعي المسترشد بالوحي لضيق الأفق التجريبي وفق فاعلية الـ "Reason" من جهة ، ولا يخضع كذلك

---

(3) Hans Reichenbach , Philosophic of Foundation of Quantum Mechanics , University of California, 1944 , p .29 , 30.

(4) . Ackermann , op.cit,pp.24

للانفلات المعرفي الفضفاض المتثمل في الصورة الشكية لمقررات الفيزياء الحديثة والمعبر عنها بمنطق القيم المتعددة والذي قد يعني التأثر بالموقف الوجودي الفرداني وإعلائه إلى حد كبير فيداخل فاعلية الـ "Mind" من جهة أخرى.

من جهة أخرى نجد أنّ التقرير الإلهي في قوله تعالى : **[وأتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شئ عليم]** " البقرة آية 282 : ".

1/ جعل الوعي عنصراً من عناصر قراءة النظام المعرفي القرآني فحالة التقوى التي هي حالة إنسانية تنمو وتتقلص تشير بذلك إلى حالة من الوعي "قالب الوعي" التي من شأنها استقبال العلم "مضمون الوعي".

2/ جعل الوعي هو وفق فاعلية الـ "Mind" ، فمفهوم التقوى باعتباره حالة وعي هو حالة انفعالية تتوافر بكمات وكيفيات ودرجات متغايرة وهي في هذا تتصف بشيء من الخصوصية من إنسان لآخر.

3/ جعل ارتباط الوعي بالكون، فالعلم الوارد ذكره في النص القرآني يمثل الجانب الموضوعي للوعي، أي ما يقع على الحقيقة الكونية، فمتى ما دخل العلم "أي الكون" إلى الوعي صار بالضرورة لا انفصال بين الجانب العقلي للوعي والجانب الموضوعي منه أي لا انفصال "لقالب الوعي من مضمون هذا الوعي" مما يؤكِّد المبدأ الفينومينولوجي " إن كل وعي هو حتماً وعي بشيء ما ".

4/ أن يكون الوحي هو العنصر الرابع المركزي في هذه التفاعلية الرباعية ، فهو الضابط والمرشد والمحدد للعلاقة بين كل هذه المتغيرات من تقوى وعلم ووعي وكون . وضرورة ذلك أن الوحي هو كلام وتشريع الله تعالى الخالق للوعي والكون بكل ما فيهما . وهنا لا بد من الإشارة إلى أن القرآن الكريم ليس هو ضرورة إرشادية معرفية فحسب وإنما من الممكن أن يتحقق في المستقبل فرضاً يفيد أن القرآن بكونه كلمة الله تعالى انما هو باستخدامه يمكن أن يعطي تأثيراً فيزيائياً مباشراً يعمل على ضبط ما يعرف "بنظام الاتزان الديناميكي" الخاص بجميع الكائنات وذلك إلى أعلى مستوى بما يتوافق تماماً مع ضبط نظام الاتزان العام للكون. فنظام الاتزان الديناميكي هذا يحدَّد – بدعم من نظرية المجال أو الحقل "Field " في الفيزياء الحديثة – بأنّه النظام القادر على تنظيم اختزان وبذل الطاقة ، فإذا تمّ اكتساب كمية من الطاقة فإنّ إيقاع الحركة الداخلية الناشئة من التناقض الداخلي الذي يسمح بقيام توازن بين قوتين أو عدة قوى يزيد أو تستخدم الطاقة في ترتيب وبناء توازن جديد بين القوى الداخلية للكائن يسمح بأشكال جديدة من التنظيم ، بحيث تمثل منظومات المادة أنظمة اتزان ديناميكي تجري فيها باستمرار عمليات بذل وامتصاص للطاقة. أما منظومات المادة الحية فهي أشكال مركبة لأنظمة اتزان ديناميكي تعتمد على نظام التغذية المرتدة "Feed Back" للمعلومات لتنظيم عمليات التفاعل المتبادل مع البيئة [1] ، وهو المبدأ الذي يقوم عليه علم التحكم الأوتوماتيكي "Cybernetics " الذي يفترض اعتماد نظام التغذية المرتدة " إي نظام التغذية المغلق الذي يعتمد فيه على أخذ جانب من الخرج " Out Put " لتعديل الدخل "In Put " مما يؤدى إلى إحداث عملية تنموية على هيئة تطور ذاتي مستمر على وجود جسم التحكم بالضرورة في وسط محيط أو بيئة يرتبط معه بمجال كهر ومغناطيسى ذو ترددات متفاوتة التأثير من جهة القوة والضعف[2] .

---

[1] جمال عبد الملك ، مسائل في الإبداع والتصور ، الطبعة الأولى، دار الجيل ، بيروت ، 1991 ، ص 143-144.

[2] مظفر شعبان ، سمير شعبان ، السيبرنتيك، - فكر مبدع يجسد وجود الطبيعة ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق 1991، ص 149-15.

وفي هذا الخصوص يمكن لنا أن نستلهم قول الله تعالى [**ولو أنّ قرآناً سُيِّرت به الجبال أو قُطعت به الأرض أو كُلِّم به الموتى بل الأمر لله جميعاً**] "الرعد آية :31". ولأجل هذا، فإنّ الإفادة من نظرية "المعنى كإستخدام"– والتي كشف عنها "فيتجشتاين" في الفكر الغربي المعاصر – في مجال قراءة نصوص الوحي تجئ متوافقة مع كيفية التعامل مع المفردات القرآنية باعتبارها تعطي دلالاتها ومعانيها من خلال السياقات التي ترد فيها. حيث أن ما يسمى بالمعنى القاموسي للمفردة اللغوية إنما هو حدود الأفق الدلالي لدى العقول البشرية وهو أمر يتنافى مع نمو حصيلة الخبرة البشرية بحدوث الكشوف العلمية المتتالية، أما كلام الله تعالى فلا يحده المعنى القاموسي لدى البشر وإنما هو يستغرق هذا المعنى القاموسي ويمتد فوقه ، لذلك تبدو دلالات المفردات اللغوية القرآنية أمام العقول البشرية ذات مرونة بالغة في موافقة المتغيرات الزمانية والمكانية لها، نسبة لمرونة السياقات القرآنية الحاملة لها والتي تكشف عن دلالات جديدة باستمرار بكيفيات الاستخدام المختلفة لها .

المراجع العربية

1- البيرت اينشتاين ، ليبولد، تطور الأفكار في الفيزياء – من المفاهيم الأولية إلى نظريتي النسبية والكم، منشورات وزارة الثقافة ، سوريا ،1987م.

2- جمال عبد الملك ، مسائل في الإبداع والتصور ، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت 1991م.

3- حسن حنفي ، مقدمة في علم الاستغراب ، ، الطبعة الأولى ،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، لبنان ، 1992م.

4- فائز فوق العادة ، نحن والرياضيات ، الطبعة الأولى ، دار الفكر، سوريا ، 1987م.

5- مظهر شعبان ، سمير شعبان ، السيبرنتيك- فكر مبدع يجسد وحدة الطبيعة، منشورات وزارة ثقافة ، دمشق، 1991م.

6- الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي، 1986م.

المراجع الأجنبية:

1- Azzam, Comalogical Theory, Time-Travel Research Association,

2- Dictionary of Philosophy, Editted by, I. Frogress Publition, 1974.

3- Donald, Polking Horine. Methodology for the Human Sciences, State University of New York Press, 1983.

4- Hans Reichenbach, Philosophic Foundation of Quantum Mechanics, University of California, 1944.

5- Hilary, Staniland Universale, The Macmillan Press LTD, London

6- Paul Robert Ackermann, An Introduction to Many- valued Logic Routllege & Kagan London, 1967.

7- Ludwig, wittgenstein, Philosophical, translated to English by; G.E. Anscombe, Basil Blackwell, Oxford, 1958.

8- Ludwig, Wittgenstin, The Blue & Brown Books, Basil Blackwell, Oxford, 1960.
9- Ludwig,Wittgenstein, Tractatus Logico- Philosophicus, An Introduction by Bertrand russell, Rautlege & Kegan Paul,seventh Impression, 1958.
10-Ludwig, Wittgestein, On Certainty, Basil Blackwell, Oxford
11-N. R, Hanson, Patterns of Discovery, Cambridge University Press, 1995.